غول النمل

تدفق سرب النمل في الوادي العظيم كسيل أسود مرعب، ومضى القائد قدماً أمام أمواج النمل الهائلة متباهياً بجيشه الدؤوب، فلم يهزم هذا الجيش قط، وكل الحشرات تخشاه، حتى أن آكل النمل بجبروته لم يجرؤ على الاقتراب من الوادي خشية الوحدة التي تجمع أفراد النمل، حاولت الحشرات المتنوعة على مر العصور بمحاربة جيش النمل والسيطرة على الوادي بأكمله، لكنها كانت كل مرة تبوء بالفشل، وتجر أذيال الهزيمة وراءها حينما تضع كل حرب من الحروب أوزارها، فأصبح صيت وادي النمل العظيم يذاع مع موجات الريح، وحبات النوى، وتغريد الدوح، حتى أصاب الوهن قلوب الحشرات قاطبة، بينما قد أصاب الكبر قلوب النمل قاطبة، مما جعل شيخ من النمل قد أوتي علما أن ينبه القائد لخطورة الموقف، فقد يقضي الكبر على القوة العظمى، وقد يخلف الغرور عواقب وخيمة لن يتحملها جيش النمل، فتخر قوته وتنهار عزيمته، وبين لأفراد النمل كافة أن بداية سقوط الشيء هو الظن في عدم سقوطه أبدا، وإن بقي النمل يفكر بأن قواه لن تسقط أبدا فستأتيهم الهزيمة من أضعف المخلوقات وأحقرها!

استهزأ النمل بكلام الشيخ، ولم يلاق سوى الازدراء والتهميش، حتى قرر الشيخ الاعتزال والابتعاد عن الوادي، ففرح أفراد النمل بهذا الخبر، فلا مكان لأصحاب العلم عند أهل القوة، لكن القائد أمر بعودته على الفور خشية أن تستفيد الحشرات المعادية من علمه، وعرض أمره على حاشيته وأهل الشورى فتفاوتت الآراء، وتعالى دبيبهم.

" يجب أن يقتل، فهذا الشيخ يزرع الخوف في قلوب المقاتلين"
" انفيه أيها القائد في وادٍ منعزل، فلا مكان للجبناء بيننا"
" دعنا نقطع أرجله، ثم نلقيه على شوارع البشر، لعل أحدهم يدوسه بقدمه، ويكون عبرة لكل الضعفاء"
فكر القائد قليلا ثم قال بصرامة:
- آراء جيدة، سأدرسها اليوم، وسأوافيكم بقراري صباح الغد.
تقدمت نملة صغيرة ذات رأس حمراء، كان وادي النمل ينادونها بالحمراء نسبة للون رأسها، وقد كانت جميلة وذكية لذا فقد حجزها القائد ليضيفها لزوجاته ريثما تصل سن البلوغ، ومنذ ذاك الوقت أصبح كل النمل يحترمها ويسمع رأيها، فقالت للقائد بعذوبة:
- أليس فيكم رحيما، هل يستحق الشيخ كل هذا العذاب مقابل تهمة زرع الخوف في قلوب النمل؟! ربما أن سنه الكبير قد أثر على تصرفاته، لذا اجعله يحرس مستودعات الطعام ويدون كل ما يدخل إليها وكل ما يخرج منها، وبهذا يكون قد انعزل عن النمل فلا يؤثر عليهم برأيه، وسنستفيد نحن من علمه من خلال التدوين. فما رأيك؟!
صفق النمل المتعاطف مع الشيخ لرأي الحمراء، وأضاءت البشاشة وجه القائد، بينما قد فهم الشيخ تماما مبتغى الحمراء، فقد أثبتت للتو أنها إحدى طالباته المخلصات، فهي تريد أن تنقذه من الموت أو الطرد من ناحية، وتريد أن تتماشى مع مطالب حاشية القائد فتسكتهم باعتزال الشيخ عنهم من ناحية أخرى.
مرت الأيام ومكانة الحمراء ما تزال ترتفع شيئا وشيئا عند قائد النمل وجنوده، حتى جاء ذلك اليوم التي بدأت فيه العلاقة تميل للتوتر بشدة، فمنذ أن تسلم الشيخ مستودعات الطعام، بدأت الحمراء تخلو مع نفسها لتتأمل طبيعة الله وبديع خلقه وصنعه، حتى اكتشفت مؤخرا ظهور حفر صغيرة تعترض طريق النمل، فحسبتها في البداية أنها ظاهرة طبيعية، لكن اتساع حجم هذه الحفر وانتشارها في أرض الوادي بطريقة سريعة جعلها تتوجس خيفة من الأمر، فارتعدت مفاصلها خوفا وتعوذت بالله من خطر قادم.

مر موكب النمل من الطريق الرئيسي للوادي، والقائد كعادته يجذب بمغناطيس وجهه ملامح التباهي والتفاخر بقوة، وما تزال الاستعراضات العسكرية تزلزل الرمل من تحت أقدامهم وكأن أحد البشر قد تأفف في هذا الوادي، فغطت الرمال أفراد الموكب للحظات خاطفة، وحينما انقشعت سحابة الرمل ضحك القائد ضحكة قوية فرحا مما أحدثته قوة جنوده في الرمل، لكن الضحكة لم تلبث طويلا بسبب صراخ أحد الجنود، فقد اختفى صديقه الذي كان بجانبه أثناء اندلاع شرارة الرمل وذراته. حينئذ تفشت الفوضى في أرجاء الوادي بطريقة عجيبة، وأعلن القائد حالة الطوارئ في كل مكان، وأمر بتشديد الرقابة على حدود الوادي، وأقسم بخالقه أنه سيقطع الخاطف إرباً.

استيقظ شعب النمل في اليوم التالي على صراخ وعويل لم يعهد لهما الوادي مثيل، فاليوم قد افتقد النمل فردا آخر من أفراده، ولم يجدوا له أي أثر بعد عناء بحث طويل. أصاب الضجر القائد وكاد عقله أن يخترق حدود رأسه، وطلب تبريرا سريعا لما يحصل في مملكته وإلا سيكون مصير الجميع الهلاك، بدأ الجميع في البحث عن السبب، حيث خرج بعضهم إلى البلدان المجاورة لاستطلاع الأخبار، وشرع البعض الآخر في نصب المصائد على الحدود كي يقع فيها الخاطف حين دخوله الوادي، لكن جميع محاولاتهم باءت بالفشل والنمل ما يزال يفقد فردا من أفراده مع مرور كل يوم. فتسلل الوهن لقلوب عامة النمل وبدأ كبريائهم يتقلص من أجوافهم شيئا فشيئا حتى كاد ينضب، مما جعل القائد يتنبأ بهلاك قادم لا محالة، فأسرع نحو الشيخ طالبا منه أن يحرص على الطعام ولا يخرج منها سوى الضروري فالخطر القادم يحمل برودة الشتاء وجوعه بين ثناياه، ارتسمت بسمة ساخرة على شفاه الشيخ وقال بتهكم:

- سيبقى الطعام في مستودعاته ولن تجد أحدا يتناوله.

ظن القائد أن الشيخ يطمئنه بهذا الرد الغريب بينما كانت جملة الشيخ تبطن في داخلها رصدا حقيقيا لمستقبل وادي النمل. لذا فقد استدعى شيخ النمل الحمراء وطلب منها أن تكتشف سر فقدان النمل

الغامض، فهو يثق بها كثيرا، ومتيقن أن العلم الذي زودها به لن يضيع سدى، كما انه أكد للحمراء أن الخطر يكمن في الداخل وليس الخارج وعليها أن تكشف السر بفطنتها. أطلقت الحمراء عقلها للريح وبدأت تتسارع في البحث، وبحثت في ذاكرتها طويلا حتى تذكرت الحفر الترابية المفاجئة. أسرعت حيث موقع الحفر فوجدتها قد اتسعت طولا وعرضا فضلا عن جدرانها الملساء التي قد ملست بفن مبهر للغاية، دققت الحمراء بصرها في عمق إحدى الحفر فوجدت فيه بقعة سوداء وعلمت أنها من بقايا أشلاء نملة، وبحذر شديد مدت قدمها نحو جدار الحفرة، فوجدت أن قدمها قابلة للانزلاق ويصعب على النمل المنزلق أن يتحكم في حركته عند سقوطه في الحفرة، فعرفت على الفور أن الخطر قادم من أسفل الحفرة وأنه يوجد شيء ما في الأسفل يخطف النمل ثم يلتهمه.

هرعت النملة نحو القائد وحاشيته وأخبرته بنتيجة ما توصلت إليه، فغادرت مع وزير القائد لتريه الحفر تاركة الملأ خلفها يغرقون في دهشتهم وحيرتهم منتظرين عودة الوزير ليتحققوا من صحة الخبر، لكنهم لم يلبثوا برهة حتى عاودتهم الدهشة من جديد حينما رأوا الحمراء تعود إليهم وحدها تلهث بشدة، والرعب قد بدا يتجلى على وجهها بوضوح، فسألوها بحزم عما جرى، فاقتربت من القائد وركعت عند قدميه قائلة بحرقة:

- ليتك أيها القائد تستدرك الأمر وتنقذ وادي النمل مما حل به.

فتح القائد عينيه على وسعهما وحدق بالحمراء منتظرا منها أن تستأنف حديثها المرعب، فانهمرت الحمراء بالبكاء، وبدأ صوتها يرتجف بوضوح، فمنظرها ينذر بخطر كائن في وادي النمل، حاولت أن تلتقط أنفاسها بملقط صبرها وقالت بهدوء غارق بالشجن:

- لقد رأيت ما عجز عنه الإنسان في القتك بأعدائه. لقد ذهبت أنا والوزير لمكان الحفر وحينما شاهد البقعة السوداء في الحفرة، ضحك ساخرا ونعتني بالغباء، وقال أن هذه خرافة من خرافاتي لأرعب فيها النمل، وأكد انه من السهل أن يخرج النمل من هذه

الحفرة إن سقط فيها، فرمى بنفسه في الحفرة ليبرهن لي بأنها وهم، وحينما سقط برز كائن رمادي حجمه في حجمنا وبدأ في غرز فكيه في مؤخرة الوزير والعجيب أن الوزير حينما كان يلتفت لأسفل الحفرة يختبئ الجبان في حفرته وحينما يحاول الوزير الصعود يخرج إليه الغول من جديد ويبدأ في سحبه للأسفل دون أي مقاومة من الوزير لأنه كان قد بذل جهدا في محاولة الصعود لكن الجدران الملساء قد أعاقت حركته.

ما أن فرغت الحمراء من حديثها حتى سيطر الضحك على الجميع، ولم يتمالك القائد نفسه أيضا من شدة الضحك، وأجمع أغلبهم أنها تمازحهم أو أنها تريد أن تشهر نفسها في دنيا الحشرات ليهابها الجميع، طلبت الحمراء من القائد وحاشيته أن يذهبوا للموقع لعلهم يجدوا شيئا ما يثبت مصداقيتها، لكن القائد رفض طلبها بناء على اقتراحات مشاوريه حيث قالوا في شأن الحمراء.

" ما هذا الهراء الذي جاءتنا به الحمراء، قد تكون هذه الحفر من ظواهر الكون الطبيعية"

" لو كانت هذه الحفر خطيرة بالفعل لحدثنا عنها أجدادنا من قبل"

" الإنسان بجبروته يعجز عن صنع ما تتحدثين عنه"

وبدأت تنهال الأقاويل التي تكذب حديث الحمراء فحاولت أن تدافع عن كلامها أمام القائد فاقتربت منه وتكلمت بكلام يتخلله الحنان:

- فكر أيها القائد بكلام حاشيتك بعقلك، لا تنظر إلى الأمور بعين القوة فحسب.

وأمسكت بيدي القائد بإحكام وأردفت حديثها قائلة:

- إن كلام الأجداد ليس مقدسا كي نأخذ به على الدوام، ولا يعني إن لم يحدثونا عن شيء ما من قبل أنه غير موجود، إن هذا الكائن كإليس يبني بيته بدهاء ليفتك بنا نحن معشر النمل إنه تماما كغول حكايات البشر، أيها القائد ألا ترى أن الطير يبني عشا في غاية الإتقان، كما ان الإنسان قد عمر في الأرض وقضى على طبيعتها بكل

قوته، أتصدق كل هذا ولا تقول انها ظواهر طبيعية ولا تصدق حفرة غول النمل وتقول أنها ظاهرة طبيعية.

بدأت علامات الاقتناع تقترب من عقل القائد لولا أن تصدى لها أخ القائد بخبث ومكر، فقال أحدهم:

- هل ستصدق أيها القائد كلام الحمراء، ألا ترى أنها تتقول عليك الأقاويل وتنقل لك خيال البشر لتبعدك عن الحقيقة التي لم ينتبه لها أي واحد منا.

تكهرب معشر النمل وبدأوا يركزون سمعهم لحديث أخ القائد باهتمام فأردف حديثه حينما تأكد أن الجميع يسمعه.

- أخي القائد ألم تسأل نفسك أين ذهب الوزير، لقد قتلته الحمراء وبدأت تحبك قصة غول النمل هذه لتغطي حقيقة قتلها للوزير بأكنة الدهاء الخبيث.

صعقت الحمراء لما سمعت وحاولت أن تدافع عن نفسها لولا أن تعالت أصوات النمل المؤيدة لكلام أخ القائد، وطلبوا من القائد أن يقتص للوزير ويقتل الحمراء، كما طلبوا منه ألا تأخذه بها رأفة كونها خطيبته، فلا بد أنها قتلت الوزير لأنه من أشار على القائد بخطبتها. إلا أن القائد قد حكم عليها بالسجن المؤبد لعدم اكتفاء الأدلة، فحبست الحمراء لأعوام في أحد أنفاق الوادي، وكان النمل في تلك الأعوام يتناقص شيئا وشيئا، حتى انقضت أعواما عديدة وأزمنة مديدة وتلاشى وجود النمل نهائيا حتى أن الحارسين اللذين خرجا ليعرفا مصيرهما بعد هلاك القائد لم يعودا أبدا فآن الأوان لتعانق الحمراء وادي النمل من جديد، لكنه كان فارغا من الناس فقد اختفت قوة النمل الهائلة التي سيطرت على الحشرات قرونا طويلة، فقررت الحمراء أن تخوض مغامرة تمنت من شعبها أن يقوم بها قبل أن يذهبوا ضحية جهلهم وعنادهم وهلاكهم على يد غول النمل، فاتجهت إلى حفرة الغول الرئيسية وأمسكت قشة في مقبضيها وحركتها في كثبان قعر الحفرة فظن غول النمل أن نملة أخرى قد سقطت في حفرته فأخرج رأسه من بين الكثبان للاستيلاء على ضحيته فأسرعت الحمراء في

مغامرة وضعتها بين احتمالين إما النجاة وإما الموت، لكن قوة إرادتها جعلتها تنقض بمقبضيها على رأس غول النمل وبدأت تنهش فيه حتى خر ميتا، فتسلقت القشة وخرجت من جديد لدنيا خالية من الخوف من جهة والجهل من جهة أخرى، فبحثت حولها عن بني جنسها لعلها تطمئنهم فلم تجد أي أحد من شعبها، لذلك توجهت نحو شيخ النمل لعلها تتزوجه ويعود النمل يتكاثر من جديد، لكن منية الشيخ كانت أقرب من حلمها في التكاثر، لذلك بقيت تعيش وحدها في الوادي العظيم منتظرة منيتها عما قريب.

النهاية